

الجاحظ والمعلمون

للاستاذ عبد السلام محمد هارون

يزعم بعض الأدباء أن الجاحظ كان خصما عنيدا للمعلمين ، يطلقون ذلك القول اطلاقا على ما فيه من اجحاف وضعف وعلى ما فيه من خطأ فى القضاء وظلم فى الحكومة .

والحق أن الجاحظ لم يكن خصما للمعلمين ، ولا شاغبا عليهم ، ولا مجحفا بحقهم أو مستهينا بمكانتهم بين الناس ، بل كان الجاحظ مدرها للمعلمين ، ولسانا ناطقا بفضلهم ومشيدا بما لهم من اثر صالح وفضل عظيم .

وقد كان المعلمون فى القرنين الثانى والثالث على طوائف شتى :

اولاهما : طبقة صغار المعلمين ، الذين كانوا يتولون تعليم الصبيان القراءة والكتابة ، يتخذون لذلك مكاتب خاصة ، أو يجعلون من المساجد مدارس لهم ، ويتكسبون بتلك الصناعة وينالون بذلك دراهم معدودة ، وقد تدعوهم الحال أن يجعلوا أجرهم ما يحمل الصبيان اليهم من الخبز على اختلاف ضروبه . ويرون أن الحجاج بن يوسف كان معلما بالطائف ، وكان أبوه يوسف معلما أيضا . وفى الحجاج يقول القائل (١) :

فماذا عسى الحجاج يبلغ جهده	إذا نحن جاوزنا حفير زياد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف	كما كان عبدا من عبيد ابياد
زمان هو العبد المقر بذلة	يرأوح غلمان القرى ويغادى
وفيه أيضا يقول القائل - وكان الحجاج يدعى كليبيا -	

(١) هو مالك بن الريب ، انظر المعارف لابن قتيبة - ٢٣٨ ، ٢٢٩ . والشعراء له أيضا : ١ : ٣١٤ طبعة الحلبي .
(*) مجلة الكتاب ، أغسطس ، ١٩٤٦ .

أينسى كليب زمان الهزال بعليمه سور الكوثر
رغيف له فلكة ما ترى وآخر كالقمر الأزهر

ومن هذه الطبقة أيضا الكميت الشاعر • قال خلف الأحمر : « رأيت
الكميت فى مسجد الكوفة يعلم الصبيان » •

والطبقة الثانية : طبقة المؤدبين لأبناء الخاصة والخلفاء ، وهؤلاء كانوا
يختارون من ذوى الأقدار ، ومن الأئمة ذوى الشأن ، وقد كان الخلفاء والولاة
يرسمون مناهج لهؤلاء المؤدبين كى يحذوا حذوها ، ويترسموا خطاها •

فمن ذلك وصية عتبة بن أبى سفيان - وهو أخو معاوية - أوصى بها
عبد الصمد مؤدب ولده ، قال (١) : « ليكن أول ما تبدأ به من اصلاح بنى
اصلاح نفسك ، فان أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ،
والقبيح عندهم ما استقبحت ، وعلمهم كتاب الله ، ولا تكرهم عليه فيملوه ،
ولا تتركهم منه فيهجروه • ثم روهم من الشعر أعفه ، ومن الحديث أشرفه ،
ولا تخرجهم من علم الى غيرهِ حتى يحكموه ، فان ازدحام الكلام فى السمع
مضلة للفهم ، وتهدهم بى وأدبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل
بالدواء قبل معرفة الداء • وجنبهم محادثة النساء ، وروهم سير الحكماء ،
وزد فى تأديبهم أزدك فى برى » •

ومن ذلك أيضا وصية الرشيد التى أوصى بها خلفا الأحمر قال (٢) :
« ان أمير المؤمنين دفع اليك مهجة نفسه وثمره قلبه ، وصير يدك عليه مبسوطه
ومقالتك فيه مصدقة ، وطاعتك عليه واجبة • فكن له بحيث وضعك أمير
المؤمنين • أقرئه القرآن ، وعلمه الآثار والأخبار والسنن ، وروهِ الأشعار
وبصره بمواقع الكلام ، ومره بالرزانة فى مجلسه ، والاقتصاد فى نظره
وسمعه ، فلا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيد اياها ، وكلمة
نافعة يعيها ويحفظها • ولا تمعن فى مسامحته فيستحلّ الفراغ ويألفه ، وقومه
بالتقريب والملاينة ، فان أبى فبالشدة » •

(١) البيان والتبيين (٢ : ٦٦) •

(٢) المحاسن والمساوى للبيهقى (٢ : ٢١٣) •

وأما الحجاج فانه كان يوصى مؤدب بنبيه بقوله (١) : « علمهم السباحة قبل الكتابة ، فانهم يجدون من يكتب عنهم ولا يجدون من يسبح عنهم » .

وأما شريح القاضى فكان له ولد يكثر البطالة ، فنظر اليه شريح يوما وهو يهارش بكلب له ، فكتب له رقعة الى معلمه وفيها هذا الشعر (٢) :

ترك الصلاة لأكلب يسعى بها	طلب الهراش مع الغواة الرجس
فاذا أتك فعضه بملامة	أو عظه موعظة الرفيق الأكيس
واذا هممت بضربه فبدره	واذا ضربت بها ثلاثا فاحبس
وليحملن منى اليك صحيفة	نكراء مثل صحيفة المتلمس
واعلم بأنك ما أتيت فنفسه	مع ما يجرعنى أعز الأنفس

قالوا : فضربه المعلم عشرا وعشرا ، فقال له شريح : لم ثنيت عليه الضرب ؟ فقال : العشر الأولى للبطالة ، والثانية للبلادة حيث لا يدري ما يحمل .

هذه أمثلة من الوصايا التى كان الولاة والخلفاء يوصون بها المؤدبين ، وهى تطلعنا على مدى النظام الذى كان يوضع للتعليم ، وعلى تباين الخطط التى كانت توحى بها النظم السياسية والاجتماعية والخلقية فى تلك العصور الأولى .

وهذه الطبقة من المعلمين كانت على جانب عظيم من التوقير والتبجيل . قالوا : سأل الرشيد يوما من أكرم الناس خدما ؟ قيل : أمير المؤمنين . قال : لا ، بل أكرمهم خدما الكسائي ، فقد رأيته يخدمه وليا عهد المسلمين ، وليس لى من الخدم مثلهما .

وكان الولاة والخلفاء يطلقون لهم اليد فى عقاب أبنائهم ، فكان معلم الرشيد يضربه على الخطأ واحد وعلى اللحن سبعا . وكان بعضهم يقدر للمؤدب مقدارا للضرب لا يعدوه ، كما سبق فى حديث شريح القاضى .

(١) عيون الاخبار (٢ : ١٦٦) .

(٢) الحيوان (٢ : ٢٤) وثمار القلوب ١٧٣ وعيون الاخبار (٢ : ١٦٧) والعقد

(١ : ٢٦٣) .

والطبقة الثالثة من طبقات المعلمين : هم جماعة المتحدثين الذين كانوا يتصدون لرواية الحديث ، وعنهم كان يتلقى الرواة والمتفقون أحاديث الرسول والصحابة . وكانت هذه الطبقة كثيرة العدد . نافقة السوق ، وكتب الرجال تطلعنا على مدى النشاط العظيم الذى ظهرت فيه هذه الطائفة . وكان من هؤلاء جماعة كبيرة تعتز بكرامة العلم وفضل العلماء . قالوا (*) : وجه الرشيد الى مالك بن أنس ليأتيه فيحدثه ، فقال مالك : « ان العلم يؤتى » . فصار الرشيد الى منزله فاستند معه الى الجدار . فقال : يا أمير المؤمنين : « من اجل الله تعالى اجلال العلم » فقام وجلس بين يديه ، وبعث الرشيد ائى سفيان ابن عيينة فأتاه وقعد بين يديه وحديثه ، فقال الرشيد بعد ذلك : « يا مالك ، تواضعنا لعلك فانتفعنا به ، وتواضع لنا علم سفيان فلم ننتفع به » .

والطبقة الرابعة من المعلمين : طبقة الشيوخ والفقهاء ، وهؤلاء القوم كانوا ذوى كرامة ظاهرة ، كان الامام أبو حنيفة اذا أخذته هزة المسائل يقول : « أين لذة الملوك من لذة ما نحن فيه . لو فطنوا لقاتلونا عليه » .

وهذه الطبقة والتي قبلها لم تكن لتكتسب بالتعليم أو تتعمد نيل أجر عليه ، بل كان المحدثون والفقهاء اما من ذوى اليسار والنعمة ، أو يكون لأحدهم صناعة أخرى يتكسب بها ، فمنهم كان القزاز والخزاز والدباغ والرفاء والكواء والخفاف والجرار والجزار والصيرفى والاسكافى والحريرى والنحاس والنقاش ، وغير أولئك ممن تغص بهم كتب الرجال .

والى جانب هذه الطبقات تجد طائفة القصاص وجماعة المفسرين والنعامة ، وأنماطا أخرى كثيرة ، منهم طائفة كانت تعلم الفتيان الخطابة (١) .

★ ★ ★

ننتقل بعد هذا العرض الى التهمة الموجهة الى الجاحظ فى خ صومة المعلمين ، حكى عن الجاحظ أنه قال (٢) : ألغت كتاباً فى نوادر المعلمين

(*) م حاضرات الراغب الاصفهانى (١ : ١٤) .

(١) البيان والتبيين (١ : ١٠٤) .

(٢) المستطرف للابشيهى (٢ : ٢٤١ - ٢٣٤) .

وما هم عليه من الغفلة ، ثم رجعت عن ذلك وعزمت على تقطيع ذلك الكتاب ، فدخلت يوما قرية فوجدت فيها معلما فى هيئة حسنة ، فسلمت عليه فرد على أحسن رد ورحب بى ، فجلست عنده وباحثته فى القرآن فاذا هو ماهر فيه ، ثم فاتحته فى الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب فاذا هو كامل الأدوات ، فقلت : هذا والله مما يقوى عزمى على تقطيع الكتاب • قال : فكنت اختلف اليه وأزوره ، فجئت يوما لزيارته ، وطرقت الباب فخرجت الى جارية وقالت : ما تريد قلت : سيدك • فدخلت وخرجت وقالت : باسم الله • فدخلت اليه واذا به جالس ، فقلت : عظم الله أجرك ، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له : هذا الذى توفى ولدك ؟ قال : لا • قلت : فوالدك ؟ قال : لا • قلت : فأخوك ؟ قال : لا • قلت : فزوجتك ؟ قال : لا • فقلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتي ! فقلت فى نفسى : هذه أول المناحس ! فقلت : سبحان الله ، النساء كثير ، وستجد غيرها ، فقال : أظن أنى رأيته ! قلت : وهذه منحة ثانية ! ثم قلت : وكيف عشقت من لم تر ؟ فقال : أعلم أنى كنت جالسا فى هذا المكان وأنا أنظر من الطاق ، اذ رأيت رجلا عليه برد وهو يقول :

يا أم عمرو جزاك الله مكـرمـة ردى على فؤادى أينما كانا

فقلت فى نفسى : لولا أن أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر ، فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

لقد ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت ، فحزنت عليها وأغلقت المكتب وجلست فى الدار ، فقلت : يا هذا ، انى كنت ألفت كتابا فى نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قويت عزمى على أبقائه • وأول أبداً بك ان شاء الله •

ويروون عن الجاحظ أيضا أنه قال : مررت بمعلم صبيان وعنده عصا طويلة ، وعصا قصيرة ، وصولجان ، وكرة ، وطبل ، وبوق ، فقلت : ما هذه؟ فقال : عندى صغار أوباش ، فأقول لأحدهم : اقرأ لوحك • فيصفر لى فأضربه

بالعصا القصيرة ، فيتأخر فأضربه بالعصا الطويلة ، فيفر من بين يدي
فأضع الكرة فى الصولجان فأضربه وأشجه ، فيقوم الى الصغار كلهم
بالألواح ، فأجعل الطبل فى عنقى ، والبوق فى فمى ، وأضرب الطبل وأنفخ
فى البوق ، فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون الى ويخلصوننى .

ويروون عنه أيضا أنه قال (١) : مررت بمعلم وهو يقرئ صبيا :
واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا
لك كيدا واكيد كيدا . فقلت له : ويحك ، قد أدخلت سورة فى سورة ، فقال :
نعم ، عافاك الله ! اذا كان أبوه يدخل شهرا فى شهر ، فأنا أيضا أدخل سورة
فى سورة ، ولا آخذ شيئا ، ولا ابنه يتعلم شيئا !

★ ★ ★

هذه هى بعض الصور التهكمية التى تسند الى الجاحظ فيما يمس
المعلمين ، وهى وان تكن تبعد شيئا عن أسلوب الجاحظ فى التعبير فإنها
لا تبعد عنه فى روح الفكاهة التى عرف بها ، وروح الضحك الذى يتردد فى
اثنائها . فان تكن حقا فإنها ترديد منه لما كان يدور فى عصره من التهكم
بصغار المعلمين الذين اتخذوا من التعليم صناعة تقيم أودهم وتمسك رمقهم .
قال الجاحظ (٢) : « من أمثال العامة : أحقق من معلم كتاب » . وقد ذكرهم
صقلاب فقال :

وكيف يرجى العقل والرأى عند من يروح على أنثى ويغدو على طفل
وفى قول بعض الحكماء : « لا تستشيروا معلما ولا راعى غنم » .

وكان القوم فى عصر الجاحظ لا يزالون على ارث من آباؤهم الذين
ينفرون من التكسب بالصناعات الصرفة التى لا تعتمد على رأس المال والثروة ،
وكانوا يكرمون العلم أن تنفق فيه دريهمات معدودة تذهب بجماله وشرفه ،
وكانت الطبقة التى تتولى تعليم أبناء العامة ترضى بالقليل ، ولا تذهب الى
المحافظة على كيائها الاجتماعى ، فدفعت الناس أن يضربوا المثل بها ، فيقولوا

(١) ثمرات الاوراق بهامش المستطرف (١ : ١٧٣ - ١٧٤) .

(٢) البيان (١ : ١٧٣) .

للشيء قد اضطرب نظمه واضطربت أوصاله : « هو كرفغان المعلم » يعنون أنها تهبط من هاهنا وهاهنا فإذا هي مشيئة مختلفة النجر ، تتعدد فيها الضروب والأشكال .

وروى الجاحظ أن ابن عتاب كان يقول (١) : « يكون الرجل نحويا عروضيا ، وقساما فرضيا ، وحسن الكتابة جيد الحساب حافظا للقرآن ، وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهما ، ولو أن رجلا كان حسن البيان ، حسن التخريج لمعانى ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم » .

ومن عجيب ما روى الجاحظ في أمر هذه الطائفة أنها كانت تستخدم أحيانا في بعض الجرائم التي كانت في عصره من الكثرة بمكان ، وهي جرائم الخناقين الذين يخنفون الناس ، قال في شأن هؤلاء القوم (٢) :

« ولا يزالون يجعلون على أبوابهم معلم كتاب منهم ، فإذا خنق أهل دار منهم انسانا ضرب النساء بالدفوف ، وضرب بعضهم الكلاب ، فسمع المعلم فصاح بالصبيان : انبحوا . وأجاب أهل كل دار بالدفوف والصنوج كما يفعل نساء أهل القرى ، وهيجوا الكلاب ، فلو كان المخنوق حمارا لما شعر بمكانه أحد » .

أضف الى ذلك أيضا أن المهمة الثقيلة التي كانت تلقى على معلم الكتاب في ظل ذلك النظام الساذج ، بل قل تلك الفوضى البدائية ، وفي ظل تلك الحاجة الى القليل اليسير من المال ، كانت تعرض بعض أفراد هذه الطائفة من المعلمين لأزمات نفسية تخرج بهم من حد الاعتدال الى ما يدعى غفلة وحمقا .

على أن مما دفع بالجاحظ الى التندر بتلك الطائفة ، ذلك الأسلوب الذي امتاز به وكاد ينفرد به ، هو أسلوب السخرية بالناس جميعا على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم . فالجاحظ لم يتهم بتلك الطائفة من الناس فحسب ، بل هو يسخر بالقصاص ، ويسخر بالمفسرين والمحدثين ، وبالقضاة وبالحكام وبطائفة المتكلمين أيضا ، لا يكاد يسلم من لاذع سخريته الا « المعتزلة » ،

(١) البيان (١ : ٢٥٣) .

(٢) الحيوان (٢ : ٢٦٥) .

فهؤلاء عنده كانوا أعقل الناس وأحزم الناس ، وأهدى الناس الى المعرفة والتبين واصابة الحكم .

فمن سخريته بالقصاص ما رواه عن أبي أحمد التمار أنه كان يقول
فى قصصه :

« لقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم حق الجار وقال فيه قولاً
استحى والله من ذكره (١) !

ومن سخريته بالمحدثين ما روى أن الأعمش كان سيئ الخلق غلقاً ،
وكان أصحاب الحديث يضجرونه ويسومونه نشر ما يحب طيه عنهم ، وتكرار
ما يحدثهم به . ويتعنتونه ، فيحلف لا يحدثهم الشهر والاکثر والأقل ، فإذا
فعل ذلك ضاق صدره بما فيه ، وتطلعت الاخبار الى الخروج منه ، يقبل على
شاة كانت له فى منزله فيحدثها بالأخبار والفقه ، حتى كان بعض أصحاب
الحديث يقول ، ليت أنى كنت شاة الأعمش (٢) !

ومن سخريته بالقضاة ما روى أن رجلاً قال لعبيد الله بن الحسن
القاضى : ان أبى أوصى بثلث ماله فى الحصون . قال : اذهب فاشتر به خيلاً .
فقال الرجل : انه انما ذكر الحصون . قال : أما سمعت قول الأسعر الجعفى :

ولقد عملت على تجنبى الردى أن الحصون الخيل لا مدر القرى (٣)

ومن سخريته بالمتكلمين ما روى أن هشام بن الحكم صاحب الهشامية ،
سأله رجل فقال : أترى الله عز وجل فى عدله وفضله كلفنا ما لا نطيق ثم
يعذبنا ؟ قال : قد والله فعل ولكننا لا نستطيع أن نتكلم به (٤) !

ونحن اذا قلبنا كتب الجاحظ لا نجد فيها الا تبجيلاً ظاهراً للمعلمين ،

(١) الحيوان (٣ : ٢٩٧) .

(٢) رسائل الجاحظ ٤٢ نشرة كراوس والحاجرى .

(٣) الحيوان (١ : ٣٥٤ - ٣٥٥) .

(٤) الحيوان (٣ : ١١) .

(٥) البيان (١ : ١٧٤ ، ١٧٥) .

ومنافحة ودفاعا عنهم • فهو فى البيان والتبيين يسهب التعليق على ضربين، منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة الى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة الى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة • فكيف تستطيع ن تزعم أن مثل على بن حمزة الكسائى ، ومحمد بن المستنير الذى يقال له قطرب وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى ••• ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ، ولا على الطبقة التى دونهم • فان ذهبوا الى معلمى كتاتيب القرى فان لكل قوم حاشية وسفلة ، فما هم فى ذلك الا كخيرهم •

فالجاحظ لا يعم أيضا معلمى الكتاتيب بالحق ، بل هو ينصفهم أصدق الانصاف ، يحتج لهم بأنهم كسائر الأقوام ، فيهم الغث والسمين ، والصالح وغيره •

ونجده يعتب على من كتب اليه رسالة « الوكلاء » بقوله (١) : « وقد رأيتك حفظك الله خونت جميع الوكلاء وفجرتهم ، وشنعت على جميع الوراقين وظلمتهم ، وجمعت جميع المعلمين وهجوتهم ، وحفظت مساويهم وتناسيت محاسنهم ، واقتصرت على ذكر مثالب الأعلام الجلة » ، فهو هنا كذلك لا يرضى بتعميم الحكم ، ويذهب مذهبا عادلا فى التقدير •

وقد بحثت ما أبقت الأيام من رسالة الجاحظ فى « المعلمين » وهى فى مختارات عبد الله بن حسان ، فوجدته يتحدث فى تمجيد المعلمين والانتصار لهم ، والاعتراف بفضلهم ، ويقول (٢) : « وليس علينا لأحد فى ذلك من المنة بعد الله ••• ما للمعلمين الذين سخرهم لنا ، ووصل حاجتهم الى ما فى أيدينا ••• والمعلمون أشقى بالصبيان من رعاة الضأن ورواض المهارة • ولو نظرت من جهة النظر علمت أن النعمة فيهم عظيمة سابغة ، والشكر عليهم لازم واجب » •

★ ★ ★

هذه نظرات الجاحظ الى المعلمين ، وهى ناطقة بانصاف الرجل ، وعدله فى حكومته ، وحسن وضعه طبقتهم فى موضعها اللائق بها من الاجلال والتكريم •

(١) رسائل الجاحظ ١٧١ طبع الساسى •

(٢) الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان بهامش كامل المبرد (١ : ١٨) •